الى حياة روحية

٢ - فى منزل الوحى

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

إلى حياة روحية تسمو بالنفس ، وتضيء القلب ، وتهذب العواطف ، وتحد من النزعات والأهواء ، وتصل أسبابنا بالسماء ..

هذا هو ما يدعو إليه هيكل ويحبذه ، بعد أن شهد ما شهد من مظاهر الحياة الروحية فى آثار النبي العربى ، ورأى كيف يفعل الإيمان الأعاجيب فى مواطن لولاه ما كان للإنسان بها طاقة ؛ ويعجب هيكل من الذين ينكرون الحياة الروحية ويتنكبون طريقها ، ويسأل فى تعجب واستنكار فيقول : « فما بال قوم في عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الإيمان ؟! » ثم يمضى هيكل ينعى على الماديين هذا الجحود لتلك الحياة ، ويرده إلى خطأهم فى فهم الحياة الروحية على حقيقتها ، وتصويرهم لها تصويراً بعيداً عن الفهم والواقع ، فهم يحسبونها خارجة على نطاق العقل ، لا تخضع لقوانين العلم فى تعليل الظواهر والمظاهر ، مع أن سبيل الحياة الروحية الصميمة إنما هو الاحاطة بالعلم فى أحدث ما وصل إليه ، واتخاذه وسيلة للنظر فى آيات الله وهى لا تنكر العقل إلا إذا قيد النظر وقُيد العقل معه ، ومن ثم كان الجمود عدواً للحياة الروحية ، ثم يلمع هيكل إلى الغاية من الحياة الروحية وصلتها بالنفوس فيقول : « والناس يستجيبون بطبيعتهم إلى الدعوة الروحية لأنهم يبتغون الحق بفطرتهم ، ولولا ما يعد لهم فيه دعاة المادة من أسباب الضلال إذ يغزونهم بمتع الحياة ولذاتها لانهارت فوارق كثيرة ليس يبقيها إلا هذا الضلال ولتقاربت الأمم بدل أن تتباعد ، ولأخلصت القصد فى سعيها إلى السلام بدل أن تجعل من نذر الحرب هيا كل عبادتها ، ولكانت خطا الإنسانية فى سبيل التقدم ناحية الكمال أسرع وأهدى سبيلاً ، ولو أن الناس لم يتنكبوا طريق الهدى لنعموا اليوم بما يلتمسونه من سعادة ، ولعلهم تنكبوا هذا الطريق لأنهم بعد فى جهالتهم ، ولأن ما بلغوا من العلم لا يزال قاصراً دون هداهم والعلم الناقص داعية الضلال ! »(١)

وهيكل إذ يقول : « إن الناس يستجيبون بطبيعتهم إلى الحياة الروحية لأنهم يبتغون الحق بفطرتهم » يقرر حقيقة قد قررها الدين ، وجاء بها الاسلام ، ففى القرآن الكريم « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها » وفى الحديث الشريف « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه » ، وهيكل إذ يرى أنه لولا ما يمده دعاة المادة من أسباب الضلال ، لانهارت فوارق كثيرة ولتقاربت الأمم بدل أن تتباعد . إنما يرى حقيقة لا تنكر ، بل إنها حقيقة يقررها كثير من أهل الفكر والثقافة ، ويرونها الملجأ الذى سيلجأ إليه العالم بعد أن يضنيه وينهكه ذلك النضال المادي العنيف ، ولقد كان من حسن التوافق أن أقرأ هذا الكلام لهيكل وقد وافتنى جريدة الأهرام وفيها نبأ من لندن يقول : إن اجتماعاً عقد فى « هيكل » العاصمة تحت رعاية جمعية الأديان المتعددة ، وقد أوضحت السيدة الناطقة باسم هذه الجمعية أن غرضها إيجاد وحدة عالمية بواسطة التفاهم الروحى

وقد تكلم إمام جامع ووكنج فقال : « إن الوقت قد حان لجميع الأديان كى تدفن أحقادها ، وتتحد على مقاومة موجة الكفر المتعالية ، والتمسك بالأمور المادية فى العالم وإهمال الأمور الروحية ، وقال : إن جميع الأديان تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، فهى تشترك فى وحدة أساسية ، وهى تتفق على الايمان بوجود الله وعلى تجلى الله للانسانية ، فيجب علينا إذن أن نتفاهم وليطمئن هيكل وليطمئن إمام جامع ووكنج . فان ذلك الحلم

(١) من ٦٣٦ من الكتاب

اللذيذ لا بد أن يتحقق ، لا أقول سيحققه فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعة ، وإنما أقول سيحققه الزمن بسنته وطبيعته وأفاعيله ، وغداً سنرى وإن كنت لا أعلم متى يكون ذلك الند أفي القريب أم في البعيد ، ولكني لست مع الدكتور هيكل إذ يعلل جحود الماديين للحياة الروحية بالجهل ونقص العلم ، فان في الماديين الجاحدين أساطين العلم ، ومن هم في الذروة التي لا تطاول عقلاً وثقافة ، وإنما يرجع هذا الجحود على ما نرى إلى اعتقاد يقوم في أذهان أولئك الناس ، وهو أن العقل كل شيء في الحياة ، لا قول إلا قوله ، ولا منطق إلا منطقه ، فمن الواجب أن تخضع لمنطقه كل ما نرى من المظاهر والظواهر ، حتى ما يتصل بميولنا وعواطفنا ، وفاتهم أن هناك القلب ، يجب أن نجعل له اعتباراً كبيراً في شؤون الحياة ، إلى جانب العقل ، ويجب أن نعتقد بأن له منطقاً كمنطق العقل إن لم يكن أجل وأدق ، وهو وحده الذي يشعرنا في رحلة الحياة الشاقة ببرد الراحة ، ويقع من نفوسنا اللاغبة موقع الماء العذب من نفس الصادي في الهماء الفاحلة ، ولا شك أننا لو طاوعنا هؤلاء الناس وجعلنا العقل كل شيء لصارت الحياة جحيما لا تطاق ، ولفررنا من شقائها كما يفر الناس في هذه الأيام بالموت والانتحار ، بل ولتمردنا على كثير من النظم والأوضاع والشرائع الطيبة الصالحة التي تكفل السعادة للمجتمع ، والتي لا يمكن أن يجحدها الماديون أنفسهم ، وأنت أبقاك الله تأمل في نفسك ساعة وانظر فيما يحف بك من النظم الاجتماعية والقيود الثقيلة التي تربطك بالمجتمع الذي تعيش فيه ، والسلاسل والأغلال التي تثقل جيدك وتنقض ظهرك من واجبات نحو الأسرة والأب والأم والزوجة والوطن والدين والتقاليد وفكرات الشرف والعرض وما إلى ذلك ، واستسلم إلى العقل وحده وانزل على حكمه في تلك الأمور عامتها تجده يجيبك عليها جوابا لا يرضاه العقل نفسه ، لأن الطبيعة قد خصت الإنسان بشيء يمتلك ناصية عقله ويتحكم فيه التحكم كله ، شيء آت من الناحية الروحية القلبية التي هي مصدر العواطف والمشاعر والتي هي مسيطرة عليها ، وإذن فالعقل ليس كل شيء في الحياة كما يزعم الماديون ، وعبثاً حاول بعض الفلاسفة أن يجعلوا العقل حد الدين ، وأن يشرعوا للناس المذاهب الفلسفية النفعية ، فنشروا كتباً « في دين الطبيعة » لتأييد مذهبهم ، وموهوا على الناس إذ زعموا أن العلم ينافي الدين ، فوقع الإنسان في مأزق من مآزق البعد عن الشريعة الأدبية كاد يتداعى معه أساس المدنية ، حاول هؤلاء أن يجدوا في عقل الإنسان وحده هادياً ومرشداً أميناً بصفته فرداً صالحاً من مجموع إنساني ، يختط له خطة من السلوك والأخلاق جديرة بأن تحفظ نظام الهيئة البشرية التي يجب أن تقوم على أساس من الإحساس الأدبي ، أخفقوا سعياً وضلوا سبيلا ، لأن الطبيعة لم تحبُ الإنسان بشيء من هذا . رجع الناس بعد ذلك مؤمنين بأن وازع ما بعد العقلية ، أول عنصر من عناصر المعتقد الديني بل نواته ، وأنه الضابط الذي يضبط علاقة الفرد بالجماعة في كل حالة من الحالات[1]

ولكن أي لون من ألوان هذه الحياة الروحية يجب أن يختار الشرق حتى يفوز بالغاية ؟ !

يرى بعض المفكرين في مصر أن لون الحياة الغربية هو اللون الصالح ، فراحوا ينقلون للشرق آثار الغرب في ذلك ما وسعهم النقل ؛ وقد كان هيكل على هذا الرأي من قبل ، ولكنه خرج عليه إذ لمس فيه الخطأ الواضح ، وهو يتحدث عن ذلك فيقول :

« لقد خيل إلي زمناً — كما لا يزال يخيل إلى أصحابي — أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى النهوض ، وما أزال أشارك أصحابي في أنا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله ، لكني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية ، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله ، لأن تاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته » وبعد أن يكشف عن وجه الفرق في ذلك يدل على اللون الصالح للشرق من الحياة الروحية ، وهو في كلامه يتحدث عن خبرة وتجربة فيقول : وقد حاولت أن أنقل لأبناء فتى ثقافة الغرب المعنوية والروحية لتتخذها هدى ونبراساً ، لكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته ، ورأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو ، ولأبناء الشرق في هذا الجيل نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين

وهذا كلام أصاب فيه هيكل شاكلة الصواب ، وشرحه شرحاً وافياً كافياً في منزل الوحي ، فجاء كتابه صفحة روحية مشرقة ، وفكرة صالحة يجب أن يطالعها أبناء الشرق لتنمو في نفوسهم ، فتؤتي ثمرها الطيب

محمد فريد عبد اللطيف

(١) بين الدين والعلم ص ١٢ ترجمة اسماعيل مظهر